المنتقى من الدواء والداء للعلامة ابن القيم

جمع

فهد بن عبدالعزيز بن عبدالله الشويرخ

حقوق الطبع والنشر لكل مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله أصحابه أجمعين...أما بعد: فكتاب العلامة ابن القيم رحمه الله " الداء والدواء " والذي اشتهر باسم " الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي " من أنفع وأفضل وأجود الكتب في تزكية النفوس وتهذيبها، عالج فيه المؤلف وهو من أطباء القلوب المتميزين داءً قاتلاً، ومرضاً خطيراً، وهو داء العشق، وكان العلاج على ضوء نصوص الكتاب والسنة، وأقوال سلف الأمة.

وقد أجاد رحمه الله وأفاد في تشخيص الداء، ووصف العلاج، ولئن كانت الحاجة إلى الكتاب ماسةً في العصر الذي عاش فيه المؤلف قبل سبعة قرون فإن الحاجة إليه أشدّ في عصرنا الذي يموج بأنواع من المغريات والفتن والشبهات والشهوات، التي من حام حولها وقع في شباكها، فأهلكته إن لم يتداركه الله برحمته.

ولأهمية الكتاب قد انتقيتُ مباحث منه، لا تغني عن أصله، أسأل الله الكريم أن تكون نافعة للجميع.

الاستفتاء الذي ورد على العلامة ابن القيم

ما تقول السادة العلماء–رضي الله عنهم أجمعين– في رجل ابتلي ببلية، وعلم أنها أن استمرت به أفسدت عليه دنياه وآخرته وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق، فما تزداد إلا توقداً وشدة، فما الحيلة في دفعها ؟ وما الطريق إلى كشفها ؟ فرحم الله من أعان مبتلى والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، أفتونا مأجورين؟

لكل داء دواء

الحمد لله، ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء)

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله)

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أسامة بن شريك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله لم يُنزل داءً إلا أنزل له شفاءً، علِمَه من علِمَه، وجَهِله من جَهِله)

وهذا يعمّ أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها.

القرآن شفاء لكل الأدواء

أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء، فقال تعالى: ﴿ ولو جعلنه قراناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي قُل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ [فصلت:٤٤] وقال: ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ [الإسراء:٨٢] فالقرآن كله شفاء...فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعظم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن.

الفاتحة شافية من الأمراض

ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد قال: انطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في سفر سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلُدِغ سيدُ ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء، لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم، فقالوا: أيها الرهط إن سيدنا لُدِغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء ؟ فقال بعضهم: نعم، والله إني لأرقي، ولكن والله استضفناكم فلم تُضيقونا، فما أنا براقٍ حتى تجعلوا لنا جُعلاً، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتقل عليه، ويقرأ: ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ فكأنما نُشِطَ من عِقال، فانطلق يمشي، وما به قَلَبة، فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذي رقى: لا نفعل حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم، فنذكر له الذي كان، فننظر بما يأمرنا، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له ذلك، فقال: (وما يدريك أنها رقية ؟) ثم قالوا: (قد أصبتُم، اقتسموا واضربوا لي معكم بسهم)

فقد أثر هذا الدواء في هذا الداء، وأزاله حتى كأن لم يكن، وهو أسهل دواء وأيسره، ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيراً عجيباً في الشفاء.

ومكثتُ بمكة مدةً تعتريني أدواء، ولا أجد طبيباً ولا دواء، فكنتُ أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيراً عجيباً، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألماً وكان كثير منهم يبرأ سريعاً.

أسباب الانتفاع بالأذكار والآيات والأدعية

ولكن ههنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الأذكار والآيات والأدعية التي يستشفى بها ويرقى بها، هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة همة الفاعل وتأثيره فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل أو لعدم قبول المنفعل أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء كما يكون ذلك في الأدوية والأدوية الحسية فالقلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام، وكان للراقي نفس فعالة وهمة مؤثرة أثّر ذلك في إزالة الداء.

وكذلك الدعاء فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف عنه أثره، إما لضعف في نفسه بأن يكون دعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء،...وإما لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام، والظلم، ورين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها.

الدعاء والإلحاح فيه من أنفع الأدوية

الدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن، وله مع البلاء ثلاث مقامات:

أحدها: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء، فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه، وإن كان ضعيفاً.

الثالث: أن يتقاوما، ويمنع كل واحد منهما صاحبه.

ومن أنفع الأدوية: الإلحاح في الدعاء.

الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه

من الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه:

أن يستعجل ويستبطئ الإجابة، فيتحسر، ويدع الدعاء، وهو بمنزلة من بذر بذراً، أو غرس غرساً، فجعل يتعاهده، ويسقيه، فلما استبطأ كماله وإدراكه، تركه وأهمله.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوتُ، فلم يستجب لي)

أسباب إجابة الدعاء

إذا جمع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب، وصادق وقتاً من أوقات الإجابة الستة وهي: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبة، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تنقضي الصلاة، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم،وصادف خشوعاً في القلب، وانكساراً بين يدي الرب، وذلاً له، وتضرعاً ورقةً، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله تعالى، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، ثم قدّم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله، وألحّ عليه في المسألة، وتملقه ودعاه رغبة ورهبة، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدم بين يدي دعائه صدقة، فإن هذا الدعاء لا يكاد يُردّ أبداً، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم.

ففي السنن أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسالك بأني أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. فقال: (لقد سأل الله بالاسم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب) وفي لفظ: (لقد سألت الله باسمه الأعظم)

وفي السنن من حديث أنس بن مالك أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً ورجل يصلي، ثم دعا فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لقد دعا الله باسمه العظيم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى)

وفي جامع الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ [البقرة: ١٦٣] وفاتحة آل عمران: ﴿ الم* الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ [آل عمران:١-٢] قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وفي مسند أحمد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ألظّوا بـ " يا ذا الجلال والإكرام ") يعني تعلقوا بها، والزموها، وداوموا عليها.

وفي جامع الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (دعوة ذي النون إذ دعا،وهو في بطن الحوت: ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين ﴾ [الأنبياء:٨٧] إنه لم يدعُ بها مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له) قال الترمذي: حديث صحيح.

حسن الظن بالله يكون بطاعته

لا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسن الظن بربه أنه يجازيه على إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته، وأما المسيء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات، فإن وحشة المعاصي والظلم والإجرام تمنعه من حسن الظن بربه،...وأحسن الناس الظن ظناً بربه أطوعهم له....وكلما حسن ظنه حسن عمله.

حسن الظن ينفع من تاب، وندم، وأقلع، وبدل السيئة الحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة،....فحسن الظن إن حمل على العمل، وحثَّ عليه، وساق إليه، فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور.

الجاهل من اعتمد على رحمة الله مع تضيعه لأمره ونهيه

كثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه، وضيعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

قيل للحسن: نراك طويل البكاء ! فقال: أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي.

قال أبو الوفاء بن عقيل: احذره ولا تغتر، فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت امرأة النار في هرة، واشتعلت الشملة ناراً على من غلها وقد قتل شهيداً.

وربما اتكل بعض المغترين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا، وأنه لا يغير به، ويظن أن ذلك من محبة الله له،...وهذا من الغرور، فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا: ﴿ فلما نسوا ما ذُكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيءٍ حتى إذا فرحوا بما أُتوا أخذنهم بغتةً فإذا هم مبلسُون﴾[الأنعام: ٤٤]

الصحابة رضي الله عنهم جمعوا بين العمل والخوف

من تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير – بل التفريط– والأمن.

فهذا الصديق كان يمسك بلسانه ويقول: هذا أوردني الموارد.

وكان يبكي كثيراًً، ويقول: ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا.

وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور حتى بلغ: ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ فبكى، واشتد بكاؤه، حتى مرض وعادوه.

وكان في وجهه رضي الله عنه خطان أسودان من البكاء.

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبل لحيته.

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه...كان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى، قال: فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق.

وهذا أبو الدرداء كان يقول: إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي: يا أبا الدرداء قد علمت، فكيف عملت فيما علمت ؟

وكان عبدالله بن عباس أسفل عينيه مثل الشرك البالي من الدموع.

وكان أبو ذر يقول: يا ليتني كنت شجرة تعضد، ووددت أي لم أخلق.

وقرأ تميم الداري ليلة سورة الجاثية، فلما أتى على هذه الآية: ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [الجاثية: ٢١] جعل يرددها ويبكى حتى أصبح.

وهذا باب يطول تتبعه.

كل شر وداء في الدنيا والآخرة سببه الذنوب

مما ينبغي أن يعلم أن الذنوب تضر ولا بد، وأن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصي ؟

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب ؟

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء، وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه، فجعلت صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع ؟

وما الذي غرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال ؟

وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض، كأنهم أعجاز نخل خاوية....حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة ؟

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم ؟

وما الذي رفع قوى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعاً....وما هي من الظالمين ببعيد.

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلظي ؟

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نُقلت أرواحهم إلى جهنم، فالأجساد للغرق، والأرواح للغرق.

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله ؟

من عقوبات الذنوب والمعاصي

للمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة والمضرة بالقلب والبدن...ما لا يعلمه إلا الله :

فمنها : حرمان العلم فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور

ومنها : حرمان الرزق...فما استُجلب رزقُ الله بمثل ترك المعاصي.

ومنها : وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله...فلو لم يترك الذنوب إلا حذراً من وقوع تلك الوحشة، لكان العاقل حرياً بتركها.

ومنها : الوحشة التي تحصل بينه وبين الناس، ولاسيما أهل الخير منهم...وكلما قويت تلك الوحشة بعُد منهم ومن مجالستهم، وحُرِمَ بركة الانتفاع بهم.

ومنها : تعسير أموره عليه، فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقاً دونه، أو متعسراً عليه.

ومنها : ظلمة يجدها في قلبه حقيقة...وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين، ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سواداً فيه يراه كل أحد.

ومنها : أنه توهن القلب والبدن أما وهنها للقلب فأمر ظاهر بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية وأما وهنها للبدن...فإن الفاجر وإن قوي البدن فهو أضعف شيء عند الحاجة.

ومنها : حرمان الطاعة، فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أنه يصدّ عن طاعة تكون بدله

ومنها : أن المعاصي تزرع أمثالها ويولد بعضها بعضاً، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنةِ الحسنةَ مثلها..ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها، ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه برحمته عليه الملائكة تؤزه إليها أزاً، وتحرضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها، ولا يزال يألف المعاصي، ويحبها، ويؤثرها، حتى يرسل الله عليه الشياطين فتؤزه إليها أزاً.

ومنها : وهو– من أخوفها على العبد أنها تُضعف القلب– أنها تضعف القلب عن إرادته، فتقوى إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية، فلو مات نصفه لما تاب إلى الله.

ومنها : أنه ينسلخ من القلب استقباحها، فتصير له عادة، فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له، ولا كلامهم فيه.

ومنها : أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه، وسقوطه من عينه.

ومنها : أن العبد لا يزال يرتكب الذنب حتى يهون عليه ويصغر في قلبه، وذلك علامة الهلاك، فإن الذنب كلما صغر في عين العبد عظُم عند الله.

ومنها:أن غيره من الناس..يعود عليه شؤم ذنوبه فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب

ومنها : أن المعصية تورث الذلَّ ولا بدَّ، فإن العزَّ كل العزِّ في طاعة الله تعالى.

ومنها: أن المعاصي تفسد العقل فإن للعقل نوراً والمعصية تطفئ نور العقل ولابدّ وإذا طفئ نوره ضعف ونقص قال بعض السلف ما عصى الله أحد حتى يغيب عقله

وهذا ظاهر فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب تعالى وتحت قهره، وهو مطلع عليه،...وملائكته شهود عليه، ناظرون إليه، وواعظ القرآن ينهاه، وواعظ الإيمان ينهاه، وواعظ الموت ينهاه، وواعظ النار ينهاه، والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعافُ أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها، فهل يُقدم على الاستهانة بذلك كلّه والاستخفاف به ذو عقل سليم ؟

ومنها : أن الذنوب إذا تكاثرت طُبع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين، كما قال بعض السلف في قوله تعالى : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ قال : هو الذنب بعد الذنب.

ومنها : أنها تُحدث في الأرض أنواعاً من الفساد في المياه والهواء والزروع والثمار والمساكن،....ومن تأثير المعاصي في الأرض : ما يحلّ بها من الخسف والزلازل ومحق بركتها.

ومنها : أنها تطفئ من القلب نار الغيرة...وأشرف الناس وأعلاهم همّة أشدُّهم غيرةً على نفسه، وخاصته، وعموم الناس.

ومنها : ذهاب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب، وهو أصل كل خير، وذهابه ذهاب الخير أجمعه....فمن لا حياء فيه ميت في الدنيا شقي في الآخرة.

ومنها : أنها تُضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتُضعف وقاره في قلب العبد،...ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه،...فإن عظمة الله وجلاله في قلب العبد وتعظيم حرماته تحول بينه وبين الذنوب،...وكيف ينتهك عبد حرمات الله، ولا يطمع أن لا ينتهك الناس حرماته ؟ أم كيف يهون عليه حقُّ الله، ولا يهوّنه الله على الناس ؟ أم كيف يستخف بمعاصي الله، ولا يستخف به الخلق ؟

ومنها : أنها تستدعي نسيان الله لعبده، وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه، وهناك الهلاك الذي لا يُرجي معه نجاة.

ومنها : أنها تخرج العبد من دائرة الإحسان،..فإذا خرج من دائرة الإحسان فاته صحبة رُفقِه الخاصة،....وفاته كل خير رتبه الله في كتابه على الإيمان، وهو نحو مائة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا

ومنها:..أنها من أقوى الأسباب الجالبة لجهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، و....زوال نعم الله وتحول عافيته، وفجاءة نقمته، وجميع سخطه.

ومنها : أنها تُزيل النِعم وتُحلُّ النِقم فما زالت عن العبد نعمة.ولا حلت به نقمة إلا بذنب كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رُفع إلا بتوبة.

ومنها :ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي فلا تراه إلا خائفاً مرعوباً،...فمن خاف الله آمنه من كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء.

ومنها: أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه، فلا يزال مريضاً معلولاً...ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿ إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم ﴾ [الانفطار:١٣-١٤] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة كذلك، أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب ؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب ؟ وأي عذاب أشد من الخوف، والهم، والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبه، وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب.

فكل من أحب شيئاً غير الله عُذب به ثلاث مرات في هذه الدار، فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته..فإذا سلبه اشتد عذابه عليه..فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً، وأنساً بربه، حتى يقول أحدهم في حال نزعه: واطرباه، ويقول الآخر: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب، ويقول الآخر : مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها، وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها.

ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

ومنها : أنها تصغر النفس وتقمعها وتحقرها، حتى تصير أصغر شيء وأحقره، كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها.

ومنها : أن العاصي دائماً في أسر شيطانه، وسجن شهواته، وقيود هواه، فهو أسير مسجون مقيد، ولا أسير أسوأ حالاً من أسير أسره أعدى عدو له.

ومنها : سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه.

ومنها : أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذمِّ والصّغار، فتسلبه اسم المؤمن، والمتقي، والمطيع، ..وتكسوه اسم الفاجر، والعاصي، والمفسد.

ومنها : أنه تؤثر بالخاصية في نقصان العقل فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاص إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل وفكره أصحّ ورأيه أسدّ والصواب قرينه

ومنها : أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى، وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير، واتصلت به أسباب الشر.

ومنها : أنها تمحق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة....فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله.

ومنها : أنها تُجرّئ على العبد من لم يكن يجترئ عليه من أصناف المخلوقات، فيجترئ عليه الشياطين بالأذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتحزين....ويجترئ عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من أذاه في غيبته وحضوره، ويجترئ عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم، قال بعض السلف : إني لأعصى الله، فأعرف ذلك في خلق امرأتي ودابتي، وكذلك تجترئ عليه نفسه، فتتأسد عليه وتستصعب عليه، فلو أرادها لخير لم تطاوعه، ولم تنقد له، وتسوقه إلى ما فيه هلاكه، شاء أم أبى.

ومنها : أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه،......فإذا وقع في مكروه، واحتاج للتخلص منه، خانه قلبه ونفسه وجوارحه...فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله، والإنابة إليه، والجمعية عليه، والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه، ولا يطاوعه لسانه لذكره، وإن ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه...بل إن ذكر أو دعا ذكر بقلب لاهٍ ساهٍ غافل، ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له، ولم تطاوعه،......وهذا، وثَمَّ أمر أخوفُ من ذلك وأدهى منه، وأمرّ، وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى، فربما تعذر عليه النطق بالشهادة، كما شاهد الناس كثيراً من المحتضرين أصابهم ذلك، حتى قيل لبعضهم : قل : لا إله إلا الله، فقال : آه! آه! لا أستطيع أن أقولها!

وقيل لآخر : قل : لا إله إلا الله، فقال :

يا رُبَّ قائلةٍ يوم وقد تعبت كيف الطريق إلى حمام منجاب

وقيل لآخر : قل : لا إله إلا الله، فجعل يهذي بالغناء، وقيل لآخر ذلك فقال: وما ينفعني ما تقول، ولم أدع معصية إلا ركبتها، ثم قضى ولم يقلها، وقيل لآخر ذلك، فقال : وما يغني عنّي، وما أعرف أني صليتُ لله صلاة، ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال : كلما أردت أن أقولها فلساني يُمسك عنها.

وسبحان الله كم شاهد الناس من هذا عبراً والذي يخفي عليهم من أحوال المحتضرين أعظم،...فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره، واتبع هواه، وكان أمره فُرُطاً، فبعيد من قلب بعيد من الله تعالى، غافل عنه، متعبد لهواه، أسير لشهواته، ولسانٍ يابس من ذكره، وجوارح معطلة عن طاعته مشتغلةٍ بمعصيته أن توفق للخاتمة بالحسنى.

ومنها: أنها مدد من الإنسان يمد به عدوه عليه، وجيش يقويه به على حربه، وذلك أن الله سبحانه ابتلى.الإنسان بعدو لا يفارقه طرفة عين، ينام ولا ينام عنه، ويغفل ولا يغفل عنه، يراه هو وقبيلُه من حيث لا يراه، يبذل جهده في معاداته في كل حال، ولا يدع أمراً يكيده به يقدر على إيصاله إليه إلا أوصله، ويستعين عليه ببني أبيه من شياطين الجن وغيرهم من شياطين الإنس، قد نصب له الحبائل،..والفخاخ والشباك، وقال لأعوانه: دونكم عدوكم وعدو أبيكم، لا يفوتنكم، ولا يكن حظُّه الجنة وحظُّكم النار، ونصيبُه الرحمة ونصيبكم اللعنة، وقد علمتم أن ما جرى عليّ وعليكم من الخزي واللعن والإبعاد من رحمة الله فبسببه ومن أجله، فابذلوا جهدكم أن يكونوا شركاءنا في هذه البلية.

ودونكم ثغر العين، فإن منه تنالون بغيتكم، فإني ما أفسدت بني آدم بشيء مثل النظر، فإني أبذر به في القلب بذر الشهوة، ثم أسقيه بماء الأمنية، ثم لا أزال أعدُه وأمنّيه حتى أقوى عزيمته، وأقوده بزمام الشهوة إلى الانخلاع من العصمة.

ثم امنعوا ثغر الأذن أن يدخل منه ما يفسد عليكم الأمر، فاجتهدوا أن لا تدخلوا منه إلا الباطل، فإنه خفيف على النفس تستحليه وتستملحه، وتخيروا له أعذب الألفاظ وأسحرها للألباب...وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله صلى الله عليه وسلم أو كلام النصحاء، فإن غلبتم على ذلك ودخل من ذلك شيء فحُولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكر فيه.

ثم..قوموا على ثغر اللسان، فإنه الثغر الأعظم...فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه، وامنعوه أن يجري عليه شيء مما ينفعه...فالرباط الرباط على هذا الثغر...فزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق، وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق.

وكونوا أعواناً على الإنس بكل طريق، وادخلوا عليهم من كل باب، واقعدوا لهم كل مرصـاد...اقعدوا..على سـائر طريـق الخير بالتنفـير منهـا وذكـر صـعوبتها وآفاتهـا، ثم اقعدوا على طرق المعاصي، فحسنوها في أعين بني آدم، وزينوها في قلوبهم، واجعلوا أكبر أعوانكم على ذلك النساء، فمن أبوابهن فادخلوا عليهم، فنعم العون هن لكم.

واستعينوا يا بني بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما:

أحدهما: جند الغفلة، فأغفلوا قلوب بني آدم عن الله والدار الآخرة بكل طريق...فإن القلب إذا غفل عن الله تمكنتم منه ومن أعوانه.

الثاني: جند الشهوات فزينوها في قلوبهم، وحسنوها في أعينهم.

وإذا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم من ذكر الله أو مذاكرة أمره ونهيه ودينه، ولم تقـدروا على تفريقهم، فاستعينوا عليهم ببني جنسهم من البطالين، فقربوهم منهم، وشوشوا عليهم.

وبالجملة...فادخلوا على كل واحد من بني آدم من باب إرادته وشهوته، فساعدوه عليها، وكونوا عوناً له على تحصيلها.

ورابطوا على الثغور، وانتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة، والغضب، فلا تصطادون بني آدم في أعظم من هذين الموطنين.

واعلموا أنه ليس لكم في بني آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين، وإنما أخرجت أبويهم من الجنة بالشهوة، وإنما ألقيت العداوة بين أولادهم بالغضب.

وأعظم أسلحتهم فيكم وأمنع حصونهم: ذكر الله، ومخالفة الهوى، فإذا رأيتم الرجل مخالفاً لهواه، فاهربوا من ظله، ولا تدنوا منه.

ومن عقوباتها : أنها تعمى القلب، فإن لم تُعمه أضعفت بصيرته ولا بدَّ، فإذا عمى القلب وضعف فاته من معرفة الهدى وقوته في تنفيذه في نفسه وفي غيره. .بحسب ضعف بصيرته وقوته....ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها لكانت كافية داعية إلى تركها والبعد منها.

ومن عقوباتها : أنها تنسي العبد نفسه، فإذا نسي نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها...فينسي أسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكمل به...وينسى عيوب نفسه ونقصها وآفاتها، فلا يخطر بباله إزالتها وإصلاحها...وينسى أمراض نفسه وقلبه وآلامها فلا يخطر بقلبه مداواتها ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها.

ومن عقوباتها : أنها تزيل النّعم الحاضرة وتقطع النعم الواصلة فتزيل الحاصل وتمنع الواصل فإن نعم الله ما حُفظ موجودها بمثل طاعته، ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته...فإذا أراد الله حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها

ومن عقوباتها : أنها تباعد عن العبد وليه، وأنفع الخلق له، وأنصحهم له، ومن سعادتُه في قربه منه، وهو الملك الموكّل به، وتُدني منه عدوه، وأغشَّ الخلق له، وأعظمهم ضرراً له، وهو الشيطان، فإن العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية، حتى أنه يتباعد عنه بالكذبة الواحدة مسافة وحيدة.

وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه، وألقى على لسانه القول السديد، وإذا بعد منه، وقرب منه الشيطان، تكلم على لسانه، وألقى عليه قول الزور والفحش، حتى ترى الرجل يتكلم على لسانه الملك، والرجل يتكلم على لسانه الشيطان.

الذنوب أمراض متى استحكمت قتلت

ومن عقوباتها: أنها تستجلب مواد هلاك العبد في دنياه وآخرته.

فإن الذنوب هي أمراض متى استحكمت قتلت، ولا بد، وكما أن البدن لا يكون صحيحاً إلا بغذاءٍ يحفظ قوته، واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة، والأخلاط الردية التي متى غلبت عليه أفسدته، وحمية يمتنع بها من تناول ما يؤذيه ويخشى ضرره، فكذلك القلب لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة يحفظ قوته، واستفراغ بالتوبة النصوح يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاط الرديئة منه، وحمية توجب له حفظ الصحة، وتجنب ما يضادها...والتقوى اسم متناول لهذه الأمور الثلاثة، فما فات منها فات من التقوى بقدره.

الذنب لا يخلو من عقوبة ألبتة

الذنب لا يخلو من عقوبة ألبتة، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة، لأنه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذي لا يشعر بالألم، فإذا استيقظ وصحا أحسَّ بالمؤلم.

وقد تقارن المضرة للذنب، وقد تتأخر عنه يسيراً وإما مدة، كما يتأخر المرض عن سببه أو يقارنه، وكثيراً ما يقع الغلط للعبد في هذا المقام، ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقيبه، ولا يدري أنه يعمل عمله على التدرج شيئاً فشيئاً، كما تعمل السموم والأشياء الضارة حذو القُذة بالقذة، فإن تدارك العبد بالأدوية والاستفراغ والحمية وإلا فهو صائر إلى الهلاك، هذا إذا كان ذنباً واحداً لم يتداركه بما يزيل أثره، فكيف بالذنب على الذنب كل يوم وكل ساعة ؟ والله المستعان.

استحضار بعض عقوبات الذنوب ليكون ذلك داعياً إلى هجرانها

استحضر بعض العقوبات التي رتبها الله سبحانه على الذنوب وجوز وصول بعضها إليك واجعل ذلك داعياً للنفس إلى هجرانها، وأنا أسوق لك منها طرفاً يكفي العاقل مع التصديق ببعضه:

فمنها: الختم على القلوب والأسماع، والغشاوة على الأبصار والإقفال على القلوب وجعل الاكنة عليها والرين عليها والطبع وتقليب الأفئدة والأبصار والحيلولة بين المرء وقلبه وإغفال القلب عن ذكر الرب وإنساء الإنسان نفسه وترك إرادة تطهير القلب وجعل الصدر ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّد في السماء وصرف القلوب عن الحق وزيادة مرضاً على مرضها، وإركاسها ونكسها بحيث تبقى منكوسة.

ومنها: جعل القلب أصم لا يسمع الحق، أبكم لا ينطق به أعمى لا يراه.

ومنها: الخسف بالقلب....وعلامة الخسف به أن لا يزال جوالاً حول السفليات والقاذورات والرذائل...قال بعض السلف: إن هذه القلوب جوالة فمنها ما يجول حول العرش ومنها ما يجول حول الحُشّ.

ومنها مسخ القلب، فيُمسخ كما تمسخ الصورة، فيصير القلب على قلب الحيوان الذي شابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته، فمن القلوب ما يمسخ على خُلُق خنزير لشدة شبه صاحبه به ومنها ما يمسخ على خُلُق كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك....وتقوى هذه المشابهة باطناً حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهوراً خفيفاً يراه المتفرسون وتظهر في الأعمال ظهوراً يراه كل أحد.

فسبحان الله....كم من مفتون بثناء الناس عليه، ومغرورٍ بستر الله عليه، ومستدرج بنعم الله عليه، وكل هذه عقوبات وإهانة، ويظن الجاهل أنها كرامة.

ومنها: نكسُ القلب حتى يرى الباطل حقاً والحق باطلاً والمعروف منكراً والمنكر معروفاً، ويُفسد ويري أنه يُصلح، ويصد عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعو إليها، ويشترى الضلالة بالهدى وهو يرى أنه على الهدى، ويتبع هواه وهو يزعم أنه مُطيع لمولاه، وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلوب.

ومنها: المعيشة الضنك في الدنيا، وفي البرزخ، والعذاب في الآخرة، قال تعالى: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكاً ونحشُرُهُ يوم القيامة أعمى ﴾ [طه:١٢٤] فالمعرض عنه له ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعيم، ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه، وإنما يواريه عنه سكر الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة.، فالمعيشة الضنك لازمه لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم في دنياه، وفي البرزخ، ويوم معاده.

إن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة، هو النعيم على الحقيقة.

وقد أثنى الله تعالى على خليله بسلامة قلبه فقال: ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم * إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ [الصافات:٨٣-٨٤] والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة،...فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي الجنة يوم المعاد، ولا تتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر وغفلة تناقض الذكر وهوى يناقض التجريد والإخلاص، وهذه الخمسة حُجُب عن الله وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفراداً لا تنحصر.

أقسام الذنوب

الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام : مَلَكيّة، وشيطانية، وسبعيه، وبهيمية، ولا تخرج عن ذلك :

فالذنوب الملكية : أن يتعاطى ما لا يصلح له من صفات الربوبية كالعظمة، والكبرياء، والجبروت، والقهر، والعلو، واستعباد الخلق، ونحو ذك، ويدخل في هذا الشرك بالرب تعالى...وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب....فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله سبحانه ربوبيته وملكه، وجعل له نداً، وهذا أعظم الذنوب عند الله، ولا ينفع معه عمل.

وأما الشيطانية، فالتشبه بالشيطان في الحسد، والبغي، والغش والغل، والخداع، والمكر، والأمر بمعاصي الله وتحسينها، والنهي عن طاعته، وتهجينها، والابتداع في دينه، والدعوة إلى البدع والضلال، وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة.

وأما السبعية، فذنوب العدوان والغضب وسفك الدماء والتوثب على الضعفاء والعاجزين ويتولد منها أنواع أذى النوع الإنساني والجرأة على الظلم والعدوان.

وأما الذنوب البهمية، فمثل الشَّره والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنها يتولد الزنى، والسرقة، وأكل أموال اليتامى، والبخل والشح، والجبن ،والهلع، والجزع، وغير ذلك.

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية، ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام، فهو يجرهم إليها بالزمام، فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية، ثم إلى الشيطانية، ثم إلى منازعة الربوبية والشرك في الوحدانية

مبدأ الزنى من عدم غض البصر

لما كانت مفسدة الزنى من أعظم المفاسد...كانت تلي مفسدة القتل في الكبر،..قال الإمام أحمد: لا أعلم بعد قتل النفس شيئاً أعظم من الزنى.

وقد أكد سبحانه حرمته بقوله: ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً أخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يُضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً *إلا من تاب ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠] فقرن الزنى بالشرك وقتل النفس، وجعل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح.

وأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يُعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم، مطلع عليها، ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ [غافر:١٩] ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدماً على حفظ الفرج، فإن الحوادث مبدأها من النظر، كما أن معظم النار من مستصغر الشرر، فتكون نظرة، ثم خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة.

ولهذا قيل من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه: اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات.

اللحظات

وأكثر ما تدخل المعاصي على العبد من هذه الأبواب الأربعة، فنذكر في كل واحد منها فصلاً يليق به.

فأما اللحظات فهي رائد الشهوة ورسولها، وحفظها أصل حفظ الفرج، فمن أطلق بصره أورده موارد الهلكات.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إياكم والجلوس في الطرقات) قالوا: يا رسول الله، مجالسنا ما لنا منها بد، قال: (فإن كنتم لابد فاعلين، فأعطوا الطريق حقه) قالوا: وما حقه ؟ قال: (غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام)

والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل، ولا بد، ما لم يمنع منه مانع.

وفي هذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده.

من آفات النظر: أنه يورث الحسرات والزفرات والحرقات، فيرى العبد ما ليس قادراً عليه ولا صابراً عنه، وهذا من أعظم العذاب، أن ترى ما لا صبر لك عن بعضه، ولا قدرة لك على بعضه

الخطرات

وأما الخطرات فشأنها أصعب، فإنها مبدأ الخير والشر، ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه، وقهر هواه، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب، ومن استهان بالخطرات قادته قسراً إلى الهلكات.

اللفظات

وأما اللفظات فحفظها بأن لا يخرج لفظة ضائعة، بل لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر: هل فيها ربح وفائدة أم لا؟ فإن لم يكن فيها فائدة أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر: هل يفوته بها كلمة هي أربح منها، فلا يضيعها بهذه، وإذا أردت أن تستدل على ما في القلب فاستدل عليه بحركة اللسان، فإنه يُطلعُ ما في القلب، شاء صاحبه أم أبى.

سئل صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يُدخلُ الناس النار، فقال: (الفم والفرج)

ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله، لا يلقى لها بالاً، يزل بالكلمة الواحدة منها أبعد ما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي بما يقول.

وإذا أردت أن تعرف ذلك، فانظر إلى ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جندب بن عبدالله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألي عليّ أني لا أغفر لفلان ؟ قد غفرتُ له، وأحبطتُ عملك)

فهذا العابد الذي عبد الله ما شاء أن يعبده أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقى لها بالاً، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقى لها بالاً، يهوى بها في جهنم.

وعند مسلم: (إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين ما فيها، يهوى بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب)

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة يرفعه: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)

وقد كان السلف يحاسب أحدهم نفسه في قوله: يوم حار، ويوم بارد.

وأيسر حركات الجوارح حركة اللسان، وهي أضرها على العبد.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يمسك بلسانه ويقول: هذا أوردني الموارد.

والكلام أسيرك، فإذا خرج من فيك صرت أسيره.

في اللسان آفتان عظيمتان: إن خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرى: آفة الكلام، وآفة السكوت.

وقد يكون كل منهما أعظم إثماً من الأخرى في وقتها، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاصٍ لله مراءٍ مُداهن إذ لم يخف على نفسه، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاصٍ لله، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين.

وأهل الوسط – وهم أهل الصراط المستقيم –كفوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة، فلا يرى أحدهم أنه يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلاً أن تضره في آخرته.

وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به.

الخطوات

وأما الخطوات: فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه، فإن لم يكن في خطاه مزيدُ ثواب، فالقعود عنها خير له، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة ينويها لله، فتقع خطاه قربه.

-(٢٨)

مفسدة الزنا

ومفسدة الزنا مناقضة لصلاح العالم، فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها، ونكست رؤوسهم بين الناس، وإن حملت من الزنى، فإن قتلت ولدها جمعت بين الزنى والقتل، وإن حملته الزوج أدخلت على أهله وأهلها أجنبياً ليس منهم فورثهم وليس منهم، ورآهم، وخلا بهم، وانتسب إليهم، وليس منهم، إلى غير ذلك من مفاسد زناها، وزنى الرجل فإنه يوجب اختلاط الأنساب أيضاً، وإفساد المرأة المصونة، وتعريضها للتلف والفساد، وفي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين.

فكم في الزنى من استحلال محرمات، وفوات حقوق، ووقوع مظالم.

ومن خاصيته: أنه يوجب الفقر، ويقصر العمر، ويكسو صاحبه سواد الوجه، وثوب المقت بين الناس.

ومن خاصيته أيضاً: أنه يشتت القلب، ويُمرضه إن لم يمته، ويجلب الهم والحزن والخوف، ويباعد صاحبه من الملك، ويقرب منه الشيطان.

فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته، ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه، وأفحشها وأصعبها، ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمته قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت.

وظهور الزنى من أمارات خراب العالم، وهو من أشراط الساعة، كما في الصحيحين عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا، ويقل الرجال، وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد)

في اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد، ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتى، فإنه يفسد فساداً لا يرجي له بعده صلاحاً أبداً، وبذهب خيره كله، وتمُص الأرض ماوية الحياء من وجهه، فلا يستحي بعد ذلك لا من الله ولا من خلقه، وتعمل في قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل السم في البدن.

وقد اختلف الناس هل يدخل الجنة مفعول به ؟ على قولين سمعت شيخ الإسلام يحكيهما..

والتحقيق في المسألة أن يقال: أن تاب المبتلى بهذا الداء وأناب، ورُزق توبة نصوحاً وعملاً صالحاً، وكان في كبره خيراً منه في صغره، وبدل سيئاته بحسنات، وغسل عار ذلك بأنواع الطاعات والقربات، وغض بصره، وحفظ فرجه من المحرمات، وصدق الله في معاملته، فهذا مغفور له، وهو من أهل الجنة، فإن الله يغفر الذنوب جميعاً.

وقد استقرت حكمة الله به عدلاً وفضلاً أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

أما مفعول به كان في كبره شراً مما كان في صغره، لم يوفق لتوبة نصوح ولا لعمل صالح، ولا استدراك ما فات، ولا أحيا ما أمات، ولا بدل السيئات بالحسنات، فهذا بعيد أن يوفق عند الممات لخاتمةٍ يدخل بها الجنة عقوبةً له على عمله، فإن الله سبحانه يعاقب على السيئة بسيئة أخرى فتتضاعف عقوبات السيئات بعضها ببعض، كما يثيب على الحسنة بحسنة أخرى.

إذا نظرت إلى كثير من المحتضرين وجدتهم يحال بينهم وبين حسن الخاتمة، عقوبة لهم على أعمالهم السيئة، قال الحافظ أبو محمد عبدالحق بن عبدالرحمن الأشبيلي رحمه الله: واعلم أن لسوء الخاتمة – أعاذنا الله منها – أسباباً، ولها طرق وأبواب، أعظمها: الاكباب على الدنيا، والإعراض عن الأخرى، والإقدام والجرأة على معاصي الله عز وجل، وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة، ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الجرأة والإقدام، فملك قلبه، وسبي عقله، وأطفأ نوره، وأرسل عليه حجبه، فلم تنفع فيه تذكرة، ولا نجعت فيه موعظة، فربما جاءه الموت على ذلك.

ولقد بكى سفيان الثوري ليلة إلى الصباح، فلما أصبح قيل له: كل هذا خوفاً من الذنوب ؟ فأخذ تبنة من الأرض، وقال: الذنوب أهون من هذا، ولكن أبكي من خوف الخاتمة.

وهذا من أعظم الفقه، أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى.

قال: واعلم أن سوء الخاتمة – أعاذنا الله منها – لا تكون لمن استقام ظاهره، وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به، ولله الحمد، وإنما تكون لمن له فساد في العقيدة، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه، حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطوية، ويُصطلم قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله.

ولما كانت مفسدة اللواط من أعظم المفاسد كانت عقوبته في الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات.

عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من وجدتموه يعمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به) رواه أهل السنن، وصححه ابن حبان وغيره، واحتج الإمام أحمد بهذا الحديث، وإسناده على شرط البخاري.

وأطبق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتله، لم يختلف فيه منهم رجلان، وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله.

اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر عليها الرجال، وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الذكور، وهي شهوة النساء دون شهوة الذكور، فقلبوا الأمر، وعكسوا الفطرة والطبيعة، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء، ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها،...فجعلهم آيةً للعالمين، وموعظة للمتقين، ونكالاً وسلفاً لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين.

أخذهم على غرة وهم نائمون، وجاءهم بأسُه وهم في سكرتهم يعمهون، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، فانقلبت تلك اللذات آلاماً فأصبحوا بها يعذبون...ذهبت اللذات، وأعقبت الحسرات، وانقضت الشهوة، وأورثت الشقوة، تمتعوا قليلاً وعذبوا طويلاً، رتعوا مرتعاً وخيماً، فأعقبهم عذاباً أليماً، أسكرتهم خمرة تلك الشهوة، فما استفاقوا منها إلا في ديار المعذبين، وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا إلا وهم في منازل الهالكين، فندموا والله أشد الندامة حين لا ينفع الندم، وبكوا على ما أسلفوه بدل الدموع بالدم.

فإن قيل: وهل مع ذلك كله من دواء لهذا الداء العضال، ورقية لهذا السحر القتال؟ وما الاحتيال لدفع هذا الخبال ؟

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذي وقع عليه الاستفتاء والداء الذي طلب له الدواء....قيل: نعم، الجواب من رأس (وما أنزل الله سبحانه من داء إلا أنزل له دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله)

والكلام في دواء هذا الداء من طريقين:

أحدهما: حسم مادته قبل حصولها. والثاني: قلعها بعد نزولها.

وكلاهما يسير على من يسره الله عليه ومتعذر على من لم يعنه فإن أزمة الأمور بيديه

فأما الطريق المانع من حصول هذا الداء فأمران:

أحدهما غضّ البصر وفي غضِّ البصر عدة منافع وهو بعض أجزاء هذا الدواء النافع

أحدها : أنه امتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده.

الثانية : أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم الذي لعل فيه هلاكه إلى قلبه.

الثالثة: أنه يورث القلب أنساً بالله وجمعية على الله.

الرابعة : أنه يقوي القلب ويفرحه، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه.

الخامسة : أنه يكسب القلب نوراً، كما أن إطلاقه يكسبه ظلمةً

السادسة : أنه يورثه فراسة صادقةً يتميز بها الحق والمبطل، والصادق والكاذب.

السابعة: أنه يورث القلب ثباتاً وشجاعةً وقوةً.

الثامنة: أنه يسد على الشيطان مدخله إلى القلب، فإنه يدخل مع النظرة.

التاسعة: أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحة والاشتغال بها، وإطلاق البصر يشتته

الثاني: اشتغال القلب بما يصده عن ذلك، ويحول بينه وبين الوقوع فيه

فالنفس لا تترك محبوباً إلا لمحبوب أعلى منه، أو خشية مكروهٍ حصوله أضرّ عليها من فوات هذا المحبوب، وهذا يحتاج صاحبه إلى أمرين إن فُقدا أو أحدهما لم ينتفع بنفسه:

أحدهما: بصيرة صحيحة يفرق بها درجات المحبوب والمكروه، فيؤثر أعلى المحبوبين على أدناهما، ويحتمل أدنى المكروهين ليخلص من أعلاهما، وهذا خاصة العقل، ولا يعد عاقلاً من كان بضد ذلك، بل قد تكون البهائم أحسن حالاً منه.

الثاني: قوة عزم وصبر يتمكن بها من هذا الفعل والترك، فكثيراً ما يعرف الرجل قدر التفاوت، ولكن يأبى له ضعف نفسه وهمته وعزيمته على إيثار الأنفع، من جشعه وحرصه ووضاعة نفسه وخسة همته، ومثل هذا لا ينتفع بنفسه، ولا ينتفع به غيره.

المحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب، وأن لا يشرك بينه وبين غيره في محبته

لا يمكن أن يجتمع في القلب حب المحبوب الأعلى وعشق الصور أبداً، بل هما ضدان لا يتلاقيان، بل لا بد أن يخرج أحدهما صاحبه. فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الأعلى، الذي محبة ما سواه باطلة وعذاب على صاحبها، صرفه ذلك عن محبة ما سواه، وإن أحبه لم يحبه إلا لأجله ولكونه وسيلة له إلى محبته.

والمحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب، وأن لا يشرك بينه وبين غيره في محبته..وكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها...بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ابتلاه الله بمحبة غيره، فيعذبه بها في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة، فإما أن يعذبه بمحبة الأوثان أو..الصلبان أو..النيران أو..المردان أو..النسوان أو..الأثمان.

التعبد: الحب مع الخضوع والذلّ للمحبوب، فمن أحبّ شيئاً وخضع له فقد تعبد قلبه له، بل التعبد آخر مراتب الحب، ويقال له: التتيم أيضاً، فإن أول مراتبه:

العلاقة: وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب.

ثم بعدها الصبابة، وسميت بذلك لانصباب القلب إلى المحبوب.

ثم الغرام، وهو لزوم الحب للقلب لزوماً لا ينفك عنه.

ثم العشق، وهو إفراط المحبة، ولهذا لا يوصف به الرب تعالى، ولا يطلق في حقه.

ثم الشوق، وهو سفر القلب إلى المحبوب أحثّ السفر.

ثم التتيُّم، وهو آخر مراتب الحب، وهو تعبد المحب لمحبوبه.

أنواع المحبة

وههنا أربعة أنواع من المحبة، يجب التفريق بينها، وإنما ضلّ من ضلّ بعدم التميز بينها:

أحدها: محبة الله، ولا تكفى وحدها في النجاة من عذابه والفوز بثوابه فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله.

الثاني: محبة ما يحبه الله، وهذه هي التي تدخله في الإسلام، وتُخرجه من الكفر، وأحبُّ الناس إلى الله أقومُهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.

الثالث: الحب لله وفيه، وهي من لوازم محبة ما يحب، ولا يستقيم محبة ما يحب إلا بالحب فيه وله.

الرابع: المحبة مع الله، وهي المحبة الشركية، وكل من أحبّ شيئاً مع الله، لا لله ولا من أجله ولا فيه، فقد اتخذه نداً من دون الله، وهذه محبة المشركين.

وبقي قسم خامس: ليس مما نحن فيه، وهو المحبة الطبعية، وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم والزوجة والولد،

فتلك لا تُذمّ إلا إذا ألهت عن ذكر الله وشغلت محبته، كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ [المنافقون:٩] وقال: ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ [النور:٣٧]

دفع الهموم والغموم بالإقبال على الله وإيثار مرضاته على كل شيء

أعقل الناس من آثر لذته وراحته الآجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة، وأسفه الخلق من باع نعيم الأبد وطيب الحياة الدائمة واللذة العظمى التي لا تنغيص فيها ولا نقص بوجه ما، بلذة منغصة مشوبة بالآلام والمخاوف، وهي سريعة الزوال وشيكة الانقضاء.

قال بعض العلماء: فكرت فيما يسعى فيه العقلاء، فرأيت سعيهم كله في مطلوب واحد، وإن اختلفت طرقهم في تحصيله، رأيتهم جميعهم إنما يسعون في دفع الهم والغم عن نفوسهم، فهذا بالأكل والشرب، وهذا بالتجارة والكسب، وهذا بالنكاح، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة، وهذا باللهو واللعب، فقلت: هذا مطلوب العقلاء، ولكن الطرق كلها غير موصلة إليه، بل لعل أكثرها إنما يوصل إلى ضده، ولم أر في جميع هذه الطرق طريقاً موصلةً إلا الإقبال على الله ومعاملته وحده، وإيثار مرضاته على كل شيء.

قال تعالى: ﴿ من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنحينه حياة طيبة ﴾ [النحل:٩٧] وطيب الحياة جنة الدنيا.

وقال تعالى: ﴿ فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يُرد أن يُضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ [الأنعام:١٢٥]

فأيّ نعيم أطيب من شرح الصدر ؟ وأيّ عذاب أمر من ضيق الصدر ؟

وقال تعالى: ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [يونس:٦٢-٦٤]

فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشاً، وأنعمهم بالاً، وأشرحهم صدراً، وأسرهم قلباً، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا) قالوا: وما رياض الجنة ؟ قال: (مجالس الذكر)

لا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله، واشتغاله بذكره، وتنعمه بحبه

كلما كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو أحوج إليه، كان تألمه بفقد أشد، وكلما كان عدمه أنفع له كان تألمه بوجود أشد، ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله، واشتغاله بذكره، وتنعمه بحبه، وإيثاره لمرضاته، بل لا حياة ولا نعيم ولا سرور لا بهجة إلا بذلك، فعدمه آلم شيء له، وأشده عذاباً عليه، وإنما يغيب الروح عن شهود هذا الألم والعذاب اشتغالها بغيره، واستغرقها في ذلك الغير، فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم الفوت بفراق أحبَّ شيء إليها وأنفعها لها.

أعظم أنواع المحبة المذمومة: المحبة مع الله، التي يسوى المحب فيها بين محبته لله ومحبته للند الذي اتخذه من دونه.

وأعظم أنواعها المحمودة: محبة الله وحده، ومحبة ما أحبّ، وهذه المحبة هي أصل السعادة ورأسها.التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها.

والمحبة المذمومة الشركية هي أصل الشقاوة ورأسها، التي لا يبقى في العذاب إلا أهلها.

فأهل المحبة الذين أحبوا الله، وعبدوه وحده لا شريك له.

والشيء قد يُحب من وجه دون وجه، وقد يُحب لغيره، وليس شيء يُحبُّ لذاته من كل وجه إلا الله وحده، ولا تصلح الألوهية إلا له، و ﴿ ولو كان فيهما إلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء:٢٢] والتأله هو المحبة، والطاعة، والخضوع.

لوازم وآثار المحبة

المحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام، سواء كانت محمودة أو مذمومة، نافعة أو ضارة، من: الذوق، والوجد، والحلاوة، والشوق، والأنس، والاتصال بالمحبوب بالقرب منه، والانفصال عنه والبعد منه، والصد والهجران، والفرح والسرور، والبكاء والحزن، وغير ذلك من أحكامها ولوازمها.

والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته، وهذه المحبة هي عنوان سعادته، والضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره ما يضره في دنياه وآخرته، وهي عنوان شقاوته.

ـ(٣٨)

الإنسان قد يهوى ما يضره لظلمه لنفسه

الحي العاقل لا يختار محبة ما يضره ويُشقيه، وإنما يصدر ذلك عن جهلٍ وظلمٍ، فإن النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها – وذلك من ظلم الإنسان لنفسه – إما أن تكون جاهلة بحال محبوبها بأن تهوى الشيء وتحبه غير عالمة بما في محبته من المضرة، وهذا حال من اتبع هواه بغير علم، وإما عالمة بما في محبته من المضرة، لكن تؤثر هواها على علمها، وقد تتركب محبتها من أمرين: اعتقاد فاسد، وهوى مذموم، وهذا حال من اتبع الظن وما تهوى الأنفس.

توابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعة

توابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعة، فالمحبة النافعة المحمودة التي هي عنوان سعادة العبد، توابعها كلها نافعة له، حكمها حكم متبوعها.فإن بكى نفعه، وإن حزن نفعه، وإن فرح نفعه، وإن انقبض نفعه، وإن انبسط نفعه، فهو يتقلب في منازل المحبة وأحكامها في مزيد وربح وقوة.

والمحبة الضارة المذمومة، توابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها، مُبعدة له من ربه، كيفما تقلب في آثارها ونزل في منازلها فهو في خسارة وبعد.

ونختم الجواب بفصل يتعلق بعشق الصور، وما فيه من المفاسد العاجلة والآجلة، وإن كانت أضعاف ما يذكره ذاكر، فإنه يفسد القلب بالذات، وإذا فسد فسدت الإرادات والأقوال والأعمال، وفسد نفس التوحيد.

والله سبحانه إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس، وهما اللوطية والنساء، فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه، مع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله عليه.

والطائفة الثانية التي حكى الله عنهم العشق هم اللوطية، كما قال تعالى: ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون * قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون * واتقوا الله ولا تخزون * قالوا أولم ننهك عن العالمين * قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين * لعمرك إنهم في سكرتهم يعمهون ﴾ [الحجر:٦٧-٧٢]

فحكاه سبحانه عن طائفتين عشق كل منهما ما حُرم عليه من الصور، ولم يبال بما في عشقه من الضرر.

وهذا داء أعيا الأطباء دواؤه، وعزّ عليهم شفاؤه، وهو – لعمر الله – الداء العضال، والسم القاتل، الذي ما عَلِقَ بقلب إلا عزّ على الورى استنفاذه من إساره، ولا اشتعلت ناره في مهجة إلا صعب على الخلق تخليصها من ناره.

وهو أقسام: فإنه تارة يكون كفراً، كمن اتخذ معشوقه نداً يحبه كما يحبّ الله، فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله في قلبه؟ فهذا عشق لا يغفر لصاحبه، فإنه من أعظم الشرك، والله لا يغفر أن يشرك به، وإنما يُغفر بالتوبة النصوح.

وعلامة هذا العشق الشركي الكفري أن يقدم العاشق رضا معشوقه على رضا ربه، وإذا تعارض عنده حق معشوقه وحظه وحق ربه وطاعته قدم حقَّ معشوقه على حق ربه، وآثر رضاه على رضاه، وبذل لمعشوقه أنفس ما يقدر عليه، وبذل لربه – إن بذل – أردأ ما عنده، واستفرغ وسعه في مرضاة معشوقه وطاعته والقرب إليه، وجعل لربه – إن أطاعه – الفضلة التي تفضل عن معشوقه من ساعاته.

فصل

ودواء هذا الداء القتّال: أن يعرف ما ابتلي به من الداء المضاد للتوحيد أولاً، ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكرة فيه، ويكثر اللجأ والتضرع إلى الله سبحانه في صرف ذلك عنه وأن يراجع بقلبه إليه.

وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المُخلصين ﴾ [يوسف:٣٤] فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه، فإن القلب إذا خلص وأخلص عمله لله، لم يتمكن منه عشق الصور، فإنه إنما يتمكن من قلب فارغ كما قال: فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وليعلم العاقل أن العقل والشرع يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها، وإعدام المفاسد وتقليلها،...ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينيه ولا دنيوية، بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة، وذلك من وجوه:

أحدها: الاشتغال بحب المخلوق وذكره عن حب الرب تعالى وذكره.

الثاني: عذاب قلبه بمعشوقه، فإن من أحبّ شيئاً غير الله عُذب به، ولابد.

الثالث: أن العاشق قلبه أسير في قبضة معشوقة، يسومه الهوان، ولكن لسكرة العشق لا يشعر بمصابه.

الرابع: أنه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه، فليس شيء أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور.

الخامس: أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار في يابس الحطب...فأبعد القلوب من الله قلوب عشاق الصور، وإذا بعد القلب من الله طرقته الآفات من كل ناحية.

السادس: أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوى سلطانه، أفسد الذهن، وأحدث الوسواس، وربما التحق بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها...وهل أذهب عقل مجنون ليلي وأضرابه إلا العشق ؟

السابع: أنه ربما أفسد الحواس أو بعضها إما فساداً معنوياً أو صورياً،

أما الفساد المعنوي فهو تابع لفساد القلب، فإن القلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان فيرى القبيح حسناً منه ومن معشوقه

فصل

والعاشق له ثلاث مقامات: مقام ابتداء، ومقام توسط، ومقام انتهاء.

فأما مقام ابتدائه فالواجب عليه فيه مدافعته بكل ما يقدر عليه، إذا كان الوصول إلى معشوقه متعذراً قدراً أو شرعاً، فإن عجز عن ذلك وأبى قلبه إلا السفر إلى محبوبه– وهذا مقام التوسط والانتهاء– فعليه كتمان ذلك، وأن لا يفشيه إلى الخلق، ولا يشبب بمحبوبه ويهتكه بين الناس، فيجمع بين الشرك والظلم، فإن الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع الظلم.

فصل

أول أسباب العشق الاستحسان، سواء تولد عن نظر أو سماع، فإن لم يقارنه طمع في الوصال، وقارنه الإياس من ذلك، لم يحدث له العشق، فإن اقترن به الطمع، فصرفه عن فكره، ولم يشتغل قلبه به، لم يحدث له ذلك.

فإن أطال مع ذلك الفكر في محاسن المعشوق، وقارنه خوف ما هو أكبر عنده من لذة وصالة: إما خوف ديني كدخول النار، وغضب الجبار، واحتقاب الأوزار، وغلب هذا الخوف على ذلك الطمع والفكر، لم يحدث له العشق.

فإن فاته هذا الخوف، فقارنه خوف دنيوي، كخوف تلاف نفسه وماله، وذهاب جاه وسقوط مرتبته عند الناس، وسقوطه من عين من يعز عليه، وغلب هذا الخوف لداعي العشق دفعه.

وكذلك إذا خاف من فوات محبوب هو أحب إليه وأنفع له من ذلك المعشوق، وقدم محبته على محبة المعشوق، اندفع عنه العشق.

أنفع المحبة وأجلها وأعلاها محبة الله جل جلاله

اعلم أن أنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها محبة من جلبت القلوب على محبته، وفطرت الخليقة على تألهه، وبها قامت الأرض والسماوات، وعليها فطرت المخلوقات، وهي سر شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل والخضوع، وتعبدُه، والعبادة لا تصح إلا له وحده، والعبادة هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل، والشرك في هذه العبودية من أظلم الظلم الذي لا يغفره الله، والله تعالى يُحب لذاته من جميع الوجوه، وما سواه فإنما يُحب تبعاً لمحبته.

وقد دلَّ على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة، ودعوة جميع رسله، وفطرتُه التي فطر عباده عليها، وما ركب فيهم من العقول، وما أسبغ عليهم من النعم، فإن القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها، فكيف بمن كل الإحسان منه، وما بخلقه جميعهم من نعمه فمنه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ وما بكم من نعمةٍ فمن الله ثم إذا مسكم الضُّرّ فإليه تجأرون ﴾ [النحل:٥٣] وما تعرف به إلى عباده من أسمائه الحسنى وصفاته العلا، وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته.

والمحبة لها داعيان: الجمال والإجمال، والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك، فإنه جميل يحب الجمال، بل الجمال كله له، والإجمال كله منه، فلا يستحق أن يُحبّ لذاته من كل وجه سواه.

وكلٌّ ما منه إلى عبده المؤمن يدعوه إلى محبته، مما يحب العبد أو يكره، فعطاؤه ومنعه، ومعافاته وابتلاؤه، وقبضه وبسطه، وعدله وفضله، وإماتته وإحياؤه، ولطفه وبره، ورحمته وإحسانه، وستره وعفوه، وحلمه وصبره على عبده، وإجابته لدعائه، وكشف كربه، وإغاثة لهفته، وتفريج كربته – من غير حاجة منه إليه، بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه –كل ذلك داعٍ للقلوب إلى تألهه ومحبته.

فلو أن مخلوقاً فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته، فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس، مع إساءته ؟ فخيره إليه نازل، وشره إليه صاعد، يتحبب إليه بنعمه وهو غني عنه، والعبد يتبغض إليه بالمعاصي وهو فقير إليه، فلا إحسانه وبره وإنعامه عليه يصده عن معصيته، ولا معصية العبد ولؤمُه يقطع إحسان ربه عنه.

وأيضاً فكلّ من تحبه من الخلق ويحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك، والله سبحانه وتعالى يريدك لك...فكيف لا يستحي العبد أن يكون ربه له بهذه المنزلة، وهو معرض عنه، مشغول بحب غيره، قد استغرق قلبه محبةُ سواه ؟

وأيضاً فكل من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يُعاملك، ولا بد له من نوع من أنواع الربح، والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه، فالدرهم بعشر أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بواحدة، وهي أسرع شيئاً محواً.

وأيضاً فمطالبك بل مطالب الخلق كلهم جميعاً لديه، وهو أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأعطى عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله.

يشكر القليل من العمل وينميه، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه، ﴿ يسألُهُ من في السموات والأرض كل يومٍ هو في شأن ﴾ [الرحمن:٢٩] لا يشغله سمع عن سمع، ولا يغلّطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح المِلحين، بل يحبّ الملحين في الدعاء، ويُحبّ أن يسأل، ويغضب إذا لم يسأل، ويستحي من عبده حيث لا يستحي العبد منه، ويستره حيث لا يستر نفسه، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه، دعاه بنعمه وإحسانه وأياديه إلى كرامته ورضوانه فأبى.

وكيف لا تحب القلوب من لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا يجيب الدعوات إلا هو، ولا يُقيل العثرات ويغفر الخطيئات ويستر العورات ويكشف الكربات ويُغيث اللهفات ويُنيل الطلبات سواه ؟

فهو أحقُّ من ذكر، وأحقُّ من شكر، وأحق من عبد، وأحق من حُمد، وأنصر من ابتغي، وأرأف من ملك، وأجود من سئل، وأوسع من أعطى، وأرحم من استرحم، وأكرم من قُصد، وأعزّ من التُجئ إليه، وأكفى من تُوكل عليه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأشد فرحاً بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة، إذا يئس من الحياة ثم وجدها.

وهو الملك لا شريك له، والفرد فلا ند له، كل شيء هالك إلا وجهه، لن يُطاع إلا بإذنه، ولن يُعصى إلا بعلمه، يُطاع فيُشكر، وبتوفيقه ونعمته أطيع، ويُعصى فيغفر ويعفو، وحقُّه أضِيع.

فهو أقرب شهيد وأجل حفيظ، وأوفي وفي بالعهد،وأعدل قائم بالقسط، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وكتب الآثار، ونسخ الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عند علانية، والغيب لديه مكشوف، وكل أحد إليه ملهوف.

عنت الوجوه لنور وجهه، وعجزت القلوب عن إدراك كنهه، ودلّت الفطر والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه، أشرقت لنور وجهه الظلمات، واستنارت له الأرض والسماوات، وصلحت عليه جميع المخلوقات، لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفظ القسط، ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

فصل

وها هنا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به، وهو أن كمال اللذة والفرح والسرور ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لأمرين:

أحدهما: كمال المحبوب في نفسه وجماله وأنه أولى بإيثار الحب من كل ما سواه.

والأمر الثاني: كمال محبته، واستفراغ الوسع في حبه، وإيثار قربه والوصول إليه على كل شيء.

وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته، فكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحب أكمل، فلذة من اشتد ظمؤه بإدراك الماء الزلال، ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهي ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته.

وإذا عرف هذا فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه، بل هو مقصود كل حي، وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها، فهي تُذم إذا أعقبت ألماً أعظم منها، أو منعت لذةً خيراً وأجلّ منها، فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات، وفوتت أعظم اللذات والمسرات؟ وتُحمد إذا أعانت على لذة عظيمة مستقرة لا تنغيص فيها ولا نكد بوجهٍ ما، وهي لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها، قال تعالى: ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى ﴾ [الأعلى:١٦-١٧]

وقال السحرة لفرعون لما آمنوا: ﴿فاقض ما أنت قاضٍ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾ [طه:٧٢-٧٣]

وإذا عرف أن لذات الدنيا ونعيمها متاع ووسيلة إلى لذات الآخرة، ولذلك خلقت الدنيا ولذاتها، فكل لذة أعانت على لذة الآخرة وأوصلت إليها لم يُذم تناولها، بل يُحمد بحسب إيصالها إلى لذة الآخرة.

إذا عُرِف هذا، فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها: النظر إلى وجه الرب جل جلاله، وسماع كلامه منه، والقرب منه، كما ثبت في الحديث الصحيح في حديث الرؤية: (فوالله ما أعطاهم شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه)

وفي النسائي ومسند الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر عن النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه: (وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك)

وإذا عرف هذا، فأعظم الأسباب التي تُحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الإطلاق، وهو لذة معرفته سبحانه ولذة محبته، فإن ذلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالي، ونسبة لذاتها الفانية كتفلةٍ في بحرٍ، فإن الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك، فأطيبُ ما في الدنيا معرفته ومحبته، وألذُّ ما في الجنة رؤيته ومشاهدته، فمحبته ومعرفته قرة العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها، بل لذات الدنيا القاطعة عن ذلك تنقلب آلاماً وعذاباً، ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك، فليست الحياة الطيبة إلا بالله.

والمقصود أن أعظم لذات الدنيا هو السبب الموصل إلى أعظم لذة في الآخرة.

فصل

كل مسلم في قلبه محبة الله ورسوله لا يدخل الإسلام إلا بها، والناس متفاوتون في درجات هذه المحبة تفاوتاً لا يحصيه إلا الله، فبين محبة الخليلين ومحبة غيرهما ما بينهما.

فهذه المحبة التي تلطف الروح، وتخفف أثقال التكاليف، وتسخي البخيل، وتشجع الجبان، وتصفى الذهن، وتروض النفس، وتطيّب الحياة على الحقيقة، لا محبة الصور المحرمة.

وهذه المحبة التي تنور الوجه، وتشرح الصدر، وتحيي القلب.

وكذلك محبة كلام الله، فإنه من علامة محبة الله، وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله، فانظر إلى محبة القرآن من قلبك، والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإنه من المعلوم من أحب محبوباً كان كلامه وحديثه أحبَّ شيء إليه.

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله.

وكيف يشبع المحِبُّ من كلام محبوبه، وهو غاية مطلوبه.

فلمحبي القرآن من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور أضعاف ما لمحبي السماع الشيطاني، فإذا رأيت الرجل: ذوقه ووجده وطربه ونشوته في سماع الأبيات دون سماع الآيات، وفي سماع الألحان دون سماع القرآن...فهذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه، وتعلقه بسماع الشيطان، والمغرور يعتقد أنه على شيء.

-(٤٩)

فصل

العشق...أقسام:

عشق هو مقت من الله، وبعد من رحمته، وهو أضر شيء على العبد في دينه ودنياه، وهو عشق المردان، فما ابتلي به إلا من سقط من عين الله، وطرده من بابه، وأبعد قلبه عنه، وهو من أعظم الحجب القاطعة عن الله، كما قال بعض السلف: إذا سقط العبد من عين الله ابتلاه بمحبة المردان.

ودواء هذا الداء الدوي: الاستعانة بمقلب القلوب، وصدق اللجأ إليه، والاشتغال بذكره، والتعوض بحبه وقربه، والتفكر في الألم الذي يُعقِبه هذا العشق، واللذة التي تفوته به، فيترتب عليه فوات أعظم محبوب، وحصول أعظم مكروه، فإن أقدمت نفسه على هذا وآثرته، فليكبر عليها تكبيره على الجنائز، وليعلم أن البلاء قد أحاط به.

نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجعلنا ممن آثر حبه على هواه،وابتغى بذلك قربه ورضاه.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
الاستفتاء الذي ورد على العلامة ابن القيم	٤
لكل داء دواء	٤
القرآن شفاء لكل الأدواء	٤
الفاتحة شافية من الأمراض	٥
أسباب الانتفاع بالأذكار والآيات والأدعية	٦
الدعاء والإلحاح فيه من أنفع الأدوية	٦
الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه	٧
أسباب إجابة الدعاء	٧
حسن الظن بالله يكون بطاعته	٩
الجاهل من اعتمد على رحمة الله مع تضيعه لأمره ونهيه	٩
الصحابة رضي الله عنهم جمعوا بين العمل والخوف	١٠
كل شر وداء في الدنيا والآخرة سببه الذنوب	١١
من عقوبات الذنوب والمعاصي	١٢
الذنوب أمراض متى استحكمت قتلت	٢١
الذنب لا يخلو من عقوبة البتة	٢١
استحضار بعض عقوبات الذنوب ليكون ذلك داعياً إلى هجراها	٢٢

أقسام الذنوب	٢٤

مبدأ الزنى من عدم غض البصر	٢٥
اللحظات	٢٥
الخطرات	٢٦
اللفظات	٢٦
الخطوات	٢٨
مفسدة الزنا	٢٩
توبة المفعول به	٣٠
أسباب سوء الخاتمة	٣١
عقوبة اللواط	٣٢
دواء الداء العضال والسحر القتال : العشق	٣٣
المحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب، وأن لا يشرك بينه وبين غيره في محبته	٣٤
مراتب الحب	٣٥
أنواع المحبة	٣٥
دفع الهموم والغموم بالإقبال على الله وإيثار مرضاته على كل شيء	٣٦
طيب الحياة جنة الدنيا	٣٧
لا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله، واشتغاله بذكره، وتنعمه بحبه	٣٧

ـ(٥٢)

المحبة المذمومة والمحبة المحمودة	٣٨

لوازم وآثار المحبة	٣٨
الإنسان قد يهوى ما يضره لظلمه لنفسه	٣٩
توابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعة	٣٩
المفاسد العاجلة والآجلة للعشق	٤٠
أنفع المحبة وأجلها وأعلاها محبة الله جل جلاله	٤٤
الفهرس	٥١